ملف خاص

محمد حسن بريغش وفن السيرة

تبحث السيرة في حياة الأشخاص وتتحدث عن أحوالهم وسلوكهم ومشاربهم واتجاهاتهم وأعمالهم، وتسجل كل ذلك بتجرد تام . وكلما عرضت السيرة للفرد من خلال المجتمع الذي يعيشه، واستعرضت أعماله متصلة بالأحداث العامة أو متأثرة بها، تكون السيرة بذلك قد حققت الغاية المرجوة منها .[1]

ولابد أن يكون العمل ذا بناء معين، ثم لابد من أن تكون السيرة غايتها الرغبة في تاريخ حياة فرد من الأفراد - أو جانب كبير من حياته - لا تحقيقاً لنظرة خاصة، أو فلسفة محدودة، وهذا يقتضي كاتب السيرة أن يدير الأحداث حول الشخص المترجم، ولا يسمح لحياة الآخرين بالتحكم في منحى السيرة ..، بل لا بد له من أن يبني ما يكتبه على أساس متين من الصدق التاريخي، فإذا ضعف عنصر الصدق في السيرة لم تعد تسمى سيرة ؛ لأن الخيال قد يخرجها مخرجاً جديداً ويجعلها قصة منمقة ممتعة [2].

أعمال الأستاذ بريغش :

لمحمد حسن بريغش - رحمه الله - خمسة أعمال تدخل في إطار الترجمة للشخصيات، وهي : **مصعب بن عمير الداعية المجاهد، أبو بصير قمة في العزة الإسلامية، خالد بن سعيد بن العاص الصحابي المجاهد، نسيبة بنت كعب أم عمارة، ذات النطاقين أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما .**

وهناك كتابان أعلن عنهما، ولكنني لم أطلع عليهما، ولست متأكداً من صدورهما، وهما : **" حاضنة رسول الله صلى الله عليه وسلم بركة بنت ثعلبة "، و" من خير نساء العالمين خديجة وفاطمة "** [3].

ولعلنا الآن نلقي نظرات سريعة حول إسهامات الأستاذ بريغش في فن السيرة .

*** مصعب بن عمير الداعية المجاهد:**

هو أول كتاب يقدمه بريغش للمكتبة الإسلامية، ونشرت طبعته الأولى عام ١٩٧٤م، وتوالت طبعاته بعد ذلك . أما الطبعة التي بين يدي فهي الطبعة الخامسة (١٤١٨هـ /١٩٩٨م)، وتقع في مائتين وخمس وتسعين صفحة من القطع دون المتوسط، وفيها الموضوعات التالية : مجتمع الجاهلية، حياة مصعب في الجاهلية، الدين الجديد، إسلام مصعب وتحمله المحن، أنواع المحن وأبعادها وقساوتها، مصعب الداعية، مصعب المجاهد، مصعب الشهيد .

*** أبو بصير قمة في العزة الإسلامية :**

اطلعت على الطبعة السادسة، والمنشورة عام ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م، وهو أصغر كتبه حجماً، ويقع في نحو

تسعين صفحة من القطع الصغير .

وأبو بصير واحد من صحب النبي ﷺ الذين حبستهم قريش عن الهجرة وأوقعت بهم البلاء العظيم .

من موضوعات الكتاب : أبو بصير دعوة وطريق، أبو بصير وفتنة المستضعفين، الإيمان والوعي والعمل، الأمل والطريق، موقف فريد، الفرج والطريق.

*** خالد بن سعيد بن العاص الصحابي المجاهد :** يقع الكتاب في مائتين وأربع وعشرين صفحة من القطع دون المتوسط، وفيه الموضوعات التالية : السيد الكبير، المسلم المضطهد، في دار الهجرة الأولى، في كنف رسول الله، في عهد الصديق رضي الله عنه، الفتوحات في الشام .

*** نسيبة بنت كعب المازنية (أم عمارة) :**

بين يدي الطبعة الثالثة، وقد صدرت عام ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، وتبلغ صفحاتها مائة وأربع صفحات من القطع المتوسط.

وقد تناول الأستاذ بريغش سيرة هذه الصحابية الجليلة من خلال العناوين التالية : نسبها، أم عمارة والأنصار، نسيبة وبيعة العقبة، نسيبة وغزوة أحد، نسيبة الجريحة، أم عمارة تحدد معالم المعركة، بعيد المعركة، نسيبة في مواطن أخرى، أم عمارة ومسيلمة الكذاب، نسيبة ومسؤولية المرأة، نسيبة وحديث رسول الله ﷺ.

*** ذات النطاقين أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما :**

صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب عام ١٤٠٢هـ/ ١٩٨١م عن مكتبة الحرمين بالرياض في جزأين :الأول ترجم فيه لأسماء رضي الله عنها وتناول سيرتها باستفاضة في نحو مائة وسبعين صفحة، والآخر سماه " مسند أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما "، وفيه رصد الأحاديث التي روتها أسماء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفي عام ١٤٢٢هـ /٢٠٠١م صدر الجزآن معاً في كتاب واحد تحت عنوان " ذات النطاقين أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما " عن مؤسسة الرسالة ببيروت، وبلغت صفحات الكتاب ثلاثمائة وسبع صفحات من القطع المتوسط .

بقلم : د . عبد الله الحيدري*
السعودية

دوافع الكتابة :

يمكن تحديد دوافع الكتابة عن الشخصيات والترجمة لهم في أربعة دوافع، وهي : " المعاصرة، الانتصار للمذهب، الإعجاب بالشخصية، توافر المصادر الضرورية " (٤).

وبالاطلاع على أعمال الأستاذ بريغش نجد أن الدافع الرئيس لتأليفها هو " الإعجاب بالشخصية "، ومحاولة تقريبها للشباب والشابات لغرس قيم الاحتذاء والقدوة في نفوسهم .

وهناك دافع تربوي يحاول أن يغرسه في نفوس قرائه بتأثير من عمله في التدريس والتوجيه سنوات طويلة، ودافع دعوي يتضح من خلال تأكيد هذه الصفة في شخصياته المختارة، وفي العناوين الفرعية لأعماله السيرية مثل وصفه لمصعب بن عمير رضي الله عنه بـ "الداعية المجاهد " .

يقول محدداً اختياره لشخصية مصعب : " كان اختياري لشخصية مصعب رضي الله عنه بالذات لكونه الصحابي الشاب الذي ما زال يحمل في نفسه تطلعات الغد وفي جسده فورة الشباب، ومع ذلك بايع الله سبحانه بيعة الإيمان والصدق ..، فانسلخ من جاهليته وبرئ منها براءة تامة ..، وأملي أن تكون هذه الدراسة قد حققت الغرض الذي هدفت إليه في إعطاء أنموذج حي عن الدعاة المسلمين " (٥).

ويأتي اختياره لشخصية أبي بصير رضي الله عنه ليضرب به المثل في الصبر وتحمل المحن، وليقدم بشخصيته النموذج الأمثل للداعية الصبور . يقول : " أبو بصير واجه موقفاً محرجاً بعد صلح الحديبية فلم يقف أمامه حائراً، بل دفعه الإيمان إلى استشفاف الطريق الصحيح لمواصلة الدعوة والاستمرار بالجهاد، فكان عمله نموذجاً احتذاه المستضعفون في مكة، وخط بذلك معالم الطريق حتى لا ييأس مؤمن بعد محنة ولا يقعد مسلم أمام عثرة " (٦).

* أستاذ الأدب غير المتفرغ بكلية اللغة العربية بالرياض

وفي محاولة للوصول بأفكاره للشباب والشابات على السواء، نجد الأستاذ بريغش لا يقتصر في اختياره للشخصيات على الرجال، بل يقدم نماذج مشرقة من النساء اللاتي شاركن في الدعوة والجهاد، وهدفه الوصول والتأثير في الفتيات عندما يقرأن سير بنات جنسهن فيحفزهن ذلك على الرغبة في تأمل سيرهن ومحاولة الاستفادة والاحتذاء .

وقد قدم الأستاذ بريغش في هذا الإطار كتابين ضمن سلسلة " نماذج من نساء العقيدة "، وهما : نسيبة بنت كعب، وذات النطاقين .

يقول في مقدمة الأول : " كان الهدف من هذه السلسلة وضع صورة واقعية أمام المرأة المسلمة المعاصرة من خلال هذه النماذج " و " أن ترى المرأة المسلمة نماذج متنوعة تعرض فيها ألوان من الظروف والمناسبات والطبائع والوقائع والشخصيات من خلال عرض هذه السير بطريقة هادفة " (٧).

ويلح على الهدف الدعوي حينما يقدم كتابه عن أسماء رضي الله عنها فيقول : " كثيراً ما استوقفتني حوادث الصحابيات الكريمات اللواتي صحبن فجر الدعوة وشاركن فيها ... وكانت أسماء بنت أبي بكر ذات النطاقين واحدة من هؤلاء النسوة الطاهرات اللواتي ضربن أروع الأمثلة في الإيمان والصدق " إلى أن يقول : " أريد من المرأة المسلمة والرجل المسلم أن ينهض اليوم ليقرأ تاريخه ... ليحمل الراية من جديد " (٨).

المنهج والأسلوب :

اعتمد بريغش في عناوين كتبه على العناوين المركبة، وهي التي تتكون من ثلاثة ألفاظ فأكثر، وانقسمت عنوانات الكتب قسمين : رئيس وفرعي مثل : "مصعب بن عمير : الداعية المجاهد "، و " أبو بصير : قمة في العزة الإسلامية "، و" ذات النطاقين : أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما " .

وتضمنت أربعة منها إهداء، فيما خلا الخامس، وهو " ذات النطاقين " من ذلك . وقد أهدى كتابه الأول " مصعب بن عمير " إلى أبيه، وكتابه الثاني " أبو بصير " إلى أمه، فيما جاء إهداء كتابه الثالث " خالد بن سعيد " عاماً قال فيه : " إلى من أنظر إليهم بعيون الأمل ليكونوا صورة إسلامية مشرقة في عصر عز فيه الصادق الثابت، وصعب على الناس التزام الحق .

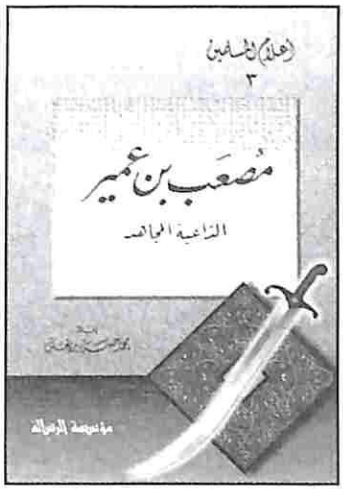

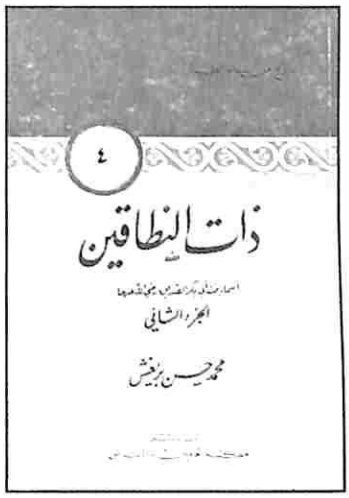

وأهدى كتابه " نسيبة بنت كعب " إلى الأحبة الصغار من أبنائه وبناته " لعلهم يتأسون بهذه النماذج من الرجال والنساء " .

وفي كتابه عن مصعب رضي الله عنه مدخل تاريخي مطول عن مجتمع الجاهلية بلغ ستاً وعشرين صفحة، في حين خصص اثنتي عشرة صفحة من كتابه عن خالد بن سعيد رضي الله عنه للحديث عن البيئة الجاهلية .

وإذا كان كاتب السيرة يعتمد على مراجع تعينه على تصوير الشخصية، فإن الأستاذ بريغش قد يذكر مراجعه وقد يهملها، ففي كتبه عن مصعب وخالد بن سعيد وأبي بصير رضي الله عنهم أجمعين أورد قائمة بمراجعه، غير أنه لم يستكمل المعلومات (الببلوجرافية) عنها، في حين جاءت مراجع كتابه أبي بصير غير مرتبة هجائياً، وخلا كتاباه عن نسيبة وأسماء رضي الله عنهما من المراجع .

وتتفاوت مصادره ومراجعه بين قديم وحديث، وأبرز مصادره : الاستيعاب، وأسد الغابة، والإصابة، وتاريخ الطبري : وتأتي كتب سيد قطب وأخيه محمد في مقدمة المراجع مثل : في ظلال القرآن، وهذا الدين، ومعالم في الطريق، وجاهلية القرن العشرين، وغيرها .

ويحاول بريغش، وخاصة في كتابيه عن مصعب وخالد رضي الله عنهما أن يوثق معلوماته، وأن يشرح بعض الكلمات، مع حرصه - في كثير من الأحيان - على

تخريج الآيات والأحاديث، ولكنه قد ينسى ذكر الصفحة والجزء أو رقم الآية [٩].

وفي عرضه لشخصياته يلبس لبوس كاتب السيرة، لكنه يتحول أحياناً إلى مؤرخ أو واعظ، والفارق بين كاتب السيرة والمؤرخ دقيق تشير إليه الدكتورة رشيدة مهران فتقول : " كتّاب التاريخ تعنيهم الأحداث بالدرجة الأولى ولا يتحدثون عن الأشخاص الذين صنعوا التاريخ إلا باعتبارهم فاعلين للأحداث " [١٠].

ويصرح الأستاذ بريغش في كتابه عن مصعب رضي الله عنه بأن البحث ليس" ترجمة بالمعنى المعروف في باب التراجم والسير " [١١].

يتحول الأستاذ بريغش إلى مؤرخ أو أشبه بالمؤرخ حينما تحدث عن مجتمع الجاهلية، وحاول أن يتوقف عند دروس معركة أحد في كتابه مصعب بن عمير[١٢]، وعندما تحدث عن البيئة الجاهلية في كتابه خالد بن سعيد [١٣].

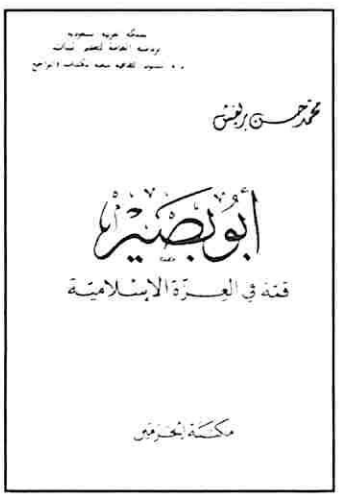

وأما الجانب الوعظي فهو هدف مباشر يحاول من خلاله المؤلف بث أفكاره للقراء ترغيباً أو ترهيباً، ومثاله من كتابه عن مصعب رضي الله عنه : " كم يسقط اليوم أناس في هذا المنزلق الخطير رغبة في الجاه الزائل، وجهلاً بالقيمة الحقيقية في الحياة ..، والداعية الذي يبايع الله بيعته الصادقة لن يكون وفياً في بيعته إذا لم يتخل عن وشائج الجاهلية وآثارها " [١٤].

وفي كتابه عن أم عمارة رضي الله عنها يربط بين واقع المرأة بالأمس واليوم، فيقول عن واقعها الحالي واستغلالها من قبل أعداء الإسلام : " غدت اليوم عاملاً مهماً تستغله الجاهليات الحديثة لإفساد الشباب وامتصاص طاقاتهم وإشغالهم عن الغايات السامية، وأضحت غرضاً يسعى إليه الساعون بعد أن صنعت منها الجاهلية صورة مغرية وألهبت من أجلها عواطف الشباب وأحاسيسهم .." [١٥].

وفي كتابه عن أسماء رضي الله عنها يصرخ : "هل يمكن للمرأة الغارقة في الرفاه التي تستهلكها الدنيا من طعام وشراب وزينة وتفاخر ومظاهر براقة، كيف يمكن لهذه المرأة أن تربي رجالاً أبطالاً، وعلماء أتقياء، وزهاداً كرماء " [١٦].

مع ما في هذه الاستطرادات من فوائد تربوية يتجه بها المؤلف للشباب والشابات - على وجه الخصوص -، فإنها في المقابل تضر بالسياق العام للنص، وتعمل على إحداث خلل في نمو شخصية البطل وتطورها .

وبالمناسبة، فإن للبطل أهميته البالغة في العمل السيري، فهو من جهة يمثل الشخصية الرئيسة، الشخصية الأكثر حضوراً، وأهميته بالنسبة للقارئ والكاتب في آن واحد، وهو - أي البطل - من جهة أخرى يحمل من خلال حياته وحركاته ومواقفه وأقواله الرسالة المضمونية للعمل، والفكرة الأساسية التي هدف الكاتب إليها [١٧].

ومما يمكن أن يمثل به من استطرادات الأستاذ بريغش - إضافة إلى ما سبق - حديثه عن ابن مسعود رضي الله عنه في نحو سبع صفحات متواصلة في كتابه " خالد بن سعيد "، وتعقيبه على إسلامه بوقفة تأمل تضمنت تحليلاً في أكثر من ثلاث صفحات [١٨].

ولقد عني الأستاذ بريغش في سياق الكشف عن حيوات شخصياته بالمقارنة بين حالين، ملحاً على الأسباب التي جعلت هذه الشخصية تنتقل من حالتها الأولى وما فيها من لهو وطيش ونعيم، إلى الحالة الأخرى وما فيها من امتحان وصبر ؛ ليخلص من ذلك إلى الدافع لاختيار الأخرى على الأولى، وهو قوة الإيمان، وحلاوة العقيدة، والرغبة في النعيم الأبدي في جنة الخلد .

وقد ساعده على ذلك اختياره لشخصية مصعب بن عمير رضي الله عنه، ذلك الفتى المدلل الذي ثار على سلطة الأبوين، واعتنق الإسلام، وتحمل في سبيل ذلك كل تعذيب وامتحان بصبر وإيمان راسخين حتى استشهد رضي الله عنه .

يقول الأستاذ بريغش مقارناً بين الحياتين : " ها نحن نرى أن هذه النعم التي كانت تحيطه في جاهليته تنقلب نقماً من الجاهلين ضده، والرعاية والرفاه الذي تقلب فيه قد تحول إلى محنة عصيبة وفقر شديد وظلم مجحف، ولكنه مع ذلك ارتفع بإيمانه السامق عالياً ليحل محل كل هذا الذي افتقده من الجاهلية " [١٩].

وفعل الشيء نفسه حينما قص لقرائه انتقال خالد بن سعيد بن العاص من حياة الكفر إلى الإيمان وكيف تحمل في سبيل ذلك غضب والده وتعذيبه، وفي ذلك يقول: " في هذا الجو ..أسلم خالد بن سعيد، وتحمل في سبيل إسلامه شتى التبعات والمحن، كان أولها انتقاله من نعمة العيش الهنيء والحياة الرغدة إلى الفقر والضنك، ولكن ذلك لم يفتنه في دينه، ولم يباعد بينه وبين دعوته .." (٢٠).

ومن المواضع التي وفق فيها الأستاذ بريغش إلى حد كبير، تصويره لمعركة بدر، وتركيزه على شخصية بطله (مصعب بن عمير)، يقول : "لن يكون مصعب إلا في مقدمة الصفوف، وبين طلائع المجاهدين ...، وهاهو مصعب يخوض معركة بدر بعد أن انتصر في معركة الجهاد الأولى مع نفسه ...، وكان مصعب يحمل اللواء في الجهاد ...، وكان مصعب نموذجاً للمؤمن الشجاع الصادق الذي يندفع لاختراق صفوف الأعداء ..ها هو مصعب في وسط القوم كالأسد الضاري، واللواء - لواء الحق - ما زال يرتفع، لقد اخترق به الصفوف ...، وظلت المعركة محتدمة ومصعب في قلب الصفوف يحمل اللواء خفاقاً عالياً، شامخاً شموخ الإيمان .." (٢١).

فالملاحظ إلحاحه على متابعة مصعب ومواقفه في المعركة دون أن يستطرد بذكر مواقف الآخرين من الصحابة رضوان الله عليهم، وهذا يعطي الشخصية ظهوراً في العمل وبروزاً في خضم الأحداث مما يكوّن بالتالي صورة واضحة للقارئ عن حياته ومواقفه .

وقد يستخدم الأستاذ بريغش الحوار لإضفاء الحيوية على النص، ومثال ذلك من كتابه عن أبي بصير رضي الله عنه، يقول :

- كيف حالك أبا بصير ؟
- الحمد لله، أشعر بشيء من العافية .
- هل لك في بعض الطعام ؟
- لا أريد شيئاً يا أبا جندل .

وينزع إلى تصوير الحالة النفسية لشخصياته حين يقول على لسان أبي بصير : " أخي ..أبا جند..ل أعطني قليلاً من الماء " (٢٢) .

فالكاتب هنا يريد أن يصور الموقف تصويراً دقيقاً مظهراً حالة أبي بصير وهو يعاني الإرهاق والعطش .

وبعد، فهذا بحث كتبته على عجل استجابة لدعوة كريمة من هذه المجلة، وإلا فإن كل كتاب يحتاج إلى وقفة مستقلة يبسط فيها القول حول قيمته الأدبية .

رحم الله الأستاذ محمد حسن بريغش الكاتب والداعية المسلم لقاء ما قدم للمكتبة الإسلامية من أعمال ستظل خالدة في نفوس الأجيال . ■

الهوامش:

(١) انظر: د.هاني العمد، دراسات في كتب التراجم والسير، ط١، عمان: الأردن، ١٩٨١م، ص ٩ .
(٢) انظر: إحسان عباس، فن السيرة، بيروت: دار الثقافة، (د.ت)، ص ٧٣، ٧٤ .
(٣) انظر: محمد حسن بريغش، نسيبة بنت كعب المازنية، الأردن: الزرقاء - مكتبة المنار، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م، ص ١٠٤ ؛ وانظر: ذات النطاقين أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما، ط١، بيروت: مؤسسة الرسالة، ص ٣١٠ .
(٤) انظر: دراسات في كتب التراجم والسير، ص ١٦ .
(٥) انظر: محمد حسن بريغش، مصعب بن عمير الداعية المجاهد، ط٥، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م، ص ١٣، ١٤ .
(٦) انظر: محمد حسن بريغش، أبو بصير قمة في العزة الإسلامية، ط٦، الرياض: مكتبة الحرمين، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م، ص ٧ .
(٧) انظر: نسيبة بنت كعب، ص ٥ .
(٨) انظر: ذات النطاقين، ص ٥، ٦ .
(٩) انظر: مصعب بن عمير، ص ٩٦، ١٥٩ .
(١٠) في كتابها " طه حسين بين السيرة والترجمة الذاتية "، ط١، الإسكندرية: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٩م، ١١٢ .
(١١) انظر: مصعب بن عمير، ص ١٠ .
(١٢) المرجع السابق، ص ١٥، ٢٦٧ .
(١٣) انظر ص ١٣ وما بعدها .
(١٤) انظر ص ١٢٧ .
(١٥) انظر ص ٦٣، ٦٤ .
(١٦) انظر ص ٩٤ .
(١٧) انظر: حسن حجاب الحازمي، البطل في الرواية السعودية، ط١، جازان: النادي الأدبي، ١٤٢١هـ، ص ٤٤ (بتصرف) .
(١٨) انظر محمد حسن بريغش " خالد بن سعيد "، الصفحات ٤٩ - ٥٦، والصفحات ٧٤ - ٧٧ .
(١٩) انظر كتابه " مصعب بن عمير "، ص ١١٣ .
(٢٠) انظر كتابه " خالد بن سعيد "، ص ٨٩ .
(٢١) انظر الصفحات ٢٣٨ - ٢٤٥ .
(٢٢) انظر ص ٥٤، ٥٥ .